لماذا أنا مكتئب...؟

...وقلبي مضطرب؟

ترجمة: أدما حبيبي

ترى، **هل هناك شيءٌ ما غريب فيَّ؟ فلماذا إذن أنا مكتئب وقلبي مضطرب؟** ولماذا أشعر باليأس والفشل بالرغم من تحصيلي العلمي وحصولي على شهادة الهندسة الكهربائية؟ لماذا أنا حزين مع أنني حظيتُ بمركز مرموق في شركة محترمة ؟ لماذا تئنُّ نفسي فيَّ وأنا مازلت في ريعان الصبا بعد؟ إذ لم أبلغ من العمر سوى سبعة وعشرين ربيعاً؟ لماذا أحس بعدم الانتماء في بلدي الجديد أمريكا الذي طالما حلمتُ بأن أعيش فيه وأصبح واحداً من مواطنيه؟ لماذا أحس بالضياع والتيهان حتى وأنا بين رفاقي وأصدقائي؟ وما هو الحل يا ترى؟ **هل الحل هو أن أعود أدراجي إلى موطني الأصلي لبنان ؟ لا لا يمكن** ، فليس الحل هو في العودة، فأنا لمّا أتيت إلى هنا أتيت بهدف الدراسة، بهدف إصلاح نفسي وعائلتي ومجتمعي عن طريق حصولي على المعرفة والعلم والخبرة التي تؤهلني لفعل ذلك. لكن وجدت أخيراً بأنني لا أستطيع أن أنقذَ نفسي ممَّا هي فيه فكيف بي أن أنقذ الآخرين؟ عندها شعرت بأنني ملزم بالبقاء ولا يمكن أن أتراجع.

هذه صرخات تصاعدتْ من قلبي المعذب بعد أن حطَّ بي الرحال في أمريكا بلاد الحرية والأحرار، وبلاد الفرص المتاحة لكل فرد دون فرق. لكن أنَّى لي أن أُسكِت هذه الصرخات الصاعدة من داخلي بعد أن اكتشفتُ أنَّ لا العلم ولا المركز المرموق يستطيعان أن يشفيا غليلي في الداخل؟ إسمي سمير وُلدت في عام ١٩٦٠ في بيروت لبنان في كنف عائلة مسلمة محافظة وكنت السابع بين إخوة وأخوات ثمانية. كانت أمي تكدُّ وتتعب في البيت كثيرا لتقديم كل ما يلزمنا من غسيل وملبس وطعام. أما أبي فكان يملك معملاً مشهوراً يديره بكل جدارة ويعمل فيه عملاً دؤوباً، وهذا ما جعله متعباً منهك القوى دائماً ممَّا منعه من قضاء وقت معنا نحن أولاده. وأذكر أنَّني لما كنت بعد في الرابعة من عمري كنت وإخوتي الصبيان نتشاجر ونتعارك دائما في البيت. لهذا أرسلتني والدتي لكي أساعد والدي في المعمل. ولا زالت ذكريات المعمل مسجلة في ذاكرتي، وحتى الآن ما برحَ صوتُ أبي المدوِّي

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

يزمجر في المعمل وهو يحثُّ العمال على الإسراع في الإنتاج والقيام بواجباتهم بأقصى سرعة. وبالتالي كان العمّال يُفرغون غضبهم فيَّ فيدفعونني أنا الصغير للعمل إلى جانبهم.

كان معمل والدي واقعاً في الجهة الشرقية لبيروت ، أي في المنطقة المسيحية. كان الناس لطفاء يحبون بعضهم بعضاً ويساعد أحدهم الآخر. أما النساء هناك فلم يضعن أيَّ غطاء على رؤوسهن ولم يلبسن قط لباساً يغطيهن من فوق إلى أسفل كما هي الحال في منطقتنا. وكن يتكلمن إلى الرجال بطلاقةٍ وحرية دون خوف أو رعب. ولمَّا بلغتُ الخامسة من عمري أرسلني والداي إلى مدرسة مسلمة لم أسرّ فيها أبداً. إذ كان المعلمون فيها قساة ويعاقبون التلاميذ لكي يصبحوا عبرةً لمَنْ يعتبر. أما من الناحية الأكاديمية فقد كانت مدرسة محترمة تعلَّمتُ فيها الأبجدية بالعربية والإنكليزية بالإضافة إلى القرآن الذي كان يُتلى على مسامعي بطريقة التجويد (الألحان). فصرت أنا أيضاً أردِّده كذلك. وتكوَّنت لديَّ فكرة عن الله بأنه كبير وضخم وأعظم بكثير ممَّا أتصوره. فالله قدير ويستطيع أن يفعل ما يشاء وقتما يشاء . يعاقب كل من لا يسلك جيداً، ويرسل إلى الجحيم من لا يؤمن به.

أما أختي الكبرى المتزوجة فكانت تأتي لزيارتنا حسبما أذكر أربع إلى خمس مرات في الأسبوع. فتترك أمي أعمال المنزل مهما كانت لتجلس مقابلها وتستمع إليها وهي تبكي وتنفث دخان سيجارتها بين حينٍ وآخر. وكنت أسمع أمي تقول لها: "إنه زوجك يا ابنتي. فماذا تقدرين أن تفعلي. هذه هي حياتك الآن ولا تستطيعين تغييرها." ولكوني صغيراً أنذاك لم يكن ما يجري يعني لي شيئا، أما الآن فإنني أصبحت أدرك لماذا لم تستطع أمي فعل أي شيء لمساعدة أختي ولماذا أختي كانت حزينة بائسة. مضت سنون عديدة أصبحت خلالها متعمِّقا في ديانتي الإسلامية. وأضحيت مسلما متديناً أصوم شهر رمضان وأصلي وأقرأ القرآن. وهكذا تأصَّل الإسلام في داخلي ولم أجرؤ بعد أن أحيد عنه ولا قيدَ أُنملة. وكان خلاصة ما تعلمته عن الإسلام هو بأن محمد آخر الأنبياء والمرسلين. أرسل الله نبينا موسى الذي جاء بالعهد القديم. وأرسل الله عيسى فأتى بالعهد الجديد وأخيراً أرسل الرسول محمد فختم عمل الله على الأرض. وبما أن القرآن هو الأكثر صحةً وكمالاً من كل الكتب المقدسة السابقة فمعناه أن المسلم لا ينبغي أن يقرأ غيره. ويؤمن المسلمون بأن الكتب المقدسة قد تحرَّفت وتغيَّرت مع السنين، ولم يحافَظ على صحتها ونقائها على مر العصور.

وعندما كنت في السابعة من عمري أمشي إلى المدرسة يوماً، جاءني رجل متواضع وابتسم في وجهي وأعطاني نبذةً صغيرة. وطلب مني أن اقرأها لأنَّ فيها أخباراً سارة. وعندما نظرت إليها رأيت صورةً لطفل صغير محاطٍ بأناس من حوله. ولازلتُ أذكر ما قرأته في هذه النبذة الصغيرة بأننا جميعنا خطاة وُلدنا بالخطية لكن هناك رجاء وأمل لنا. والرجاء يأتي عن طريق الطفل الذي يُدعى يسوع المسيح. كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها عن يسوع المسيح. فلمَّا عزمت أن أضع النبذة في جيبي إذا بأصدقائي ينهرونني عن فعل ذلك لكون النبذة تتعارض و الإسلام. وقالوا لي بأن أرميها. فلمَّا فعلت ، عاد الرجل وتلقَّفها من على الأرض

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

وأعطاني إياها فوضعتها في جيبي . ولا أعلم مَن الذي أخبر المدير في المدرسة فأعلن في نفس اليوم بأنه يجب علينا أن لا نقرأ إلا ما يختص بالإسلام فقط. وفي ذلك الوقت أيضاً نقَل والداي مكان سكناهم إلى منطقة أغلب ساكنيها من المسيحيين . وفي أحد الأيام قُرِع الباب ، فلما فتحتُ رأيت رجلاً وامرأة راحا يتكلمان عن يسوع المسيح. وبدأت أنا أسمع. ولكن ما هي إلا لحيظات حتى جاء رجل يحمل البضاعة إلى بيتنا، وإذ سمعهما يتكلمان عن يسوع المسيح قال لهما موبخاً: أنتما تؤمنان بثلاثة آلهة أما نحن فنؤمن بإله واحد.

ولما صار عمري عشر سنوات أدخلني والدي مع إخوتي الصبيان إلى مدرسة داخلية في جبال لبنان، في منطقة درزية. والدروز هم فئة تؤمن بالقرآن والإنجيل. أما الطلاب فكانوا خليطاً بين مسلم ومسيحي. لكنَّنا لم نتلقَّ أية دروس تتعلق بالدين. وبعد سنتين من ذلك نقلني والدي إلى مدرسة مسيحية إنجيلية. وهناك حاولت أن أتمتع بالحرية التي كان يتمتع بها الطلاب الآخرون ، لكنني لم أستطع. إذ إن البيئة والطريقة التي نشأت عليها كانت محافظة جداً وشعرت أنني أصبحت سجينَ نفسي. وهناك بدأتُ أتعرَّف على المسيحية الفاشيَّة. وفي أحد الأيام وبعد مناقشةٍ سياسية حادة مع رفاقي في المدرسة ، تعرَّضتُ للضرب . وعلمت أن رفاقي ينتمون إلى حزب الكتائب اللبنانية. اندلعت الحرب الأهلية في لبنان في خريف عام ١٩٧٤. واستمرَّت لمدة سنتين بادىء ذي بدء ، وكانت حرباً شعواء أودت بحياة الكثيرين من الأبرياء. وتعرَّض العديد من السكان للتهجير من بيوتهم. وسادت الكراهية والحقد جميع الفرقاء المتقاتلين. وعند ذاك بدأت أذهب إلى مدرسة حكومية لكي أنهي دراستي الثانوية. وبعدها، صمَّمت بأن أهاجر إلى أمريكا، التي طالما شاهدت عنها أفلاماً لا تُعدُّ ولا تُحصى ، طلباً للعلم وهروباً من الحرب المستعرة نارها. فقدمت طلباً وحصلت على تأشيرة الدخول إلى أميركا لأتمم دراستي. ولما وصلت إلى هنا تعجبت من كل ما شاهدته فيها. فهي بلاد واسعة جدا، نظيفة ومرتبة وغنية. تماماً كما رأيت في الأفلام. رأيت بأم عيني رعاة البقر في تكساس يلبسون على رؤوسهم القبعات ، ويرتدون السراويل الزرقاء والأحذية اللامعة، يقودون سيارات كبيرة وشاحنات ضخمة. أحببتُ كل هذا في أميركا، والأهم من هذا وذاك كنت مسروراً أنني لا أشارك الغرفة مع أحد. أحببت السلام والهدوء . فلم أسمع قطُّ أزيز الرصاص ولا زمجرة المدافع أو زعيق الانفجارات. واستغربتُ أنني لم أسمع صوت زمور السيارات . وهكذا شعرت للحال بأنني أقدر أن أعيش حياتي دون أن يتدخَّل بي أحد.

ولكن ، بعد كل تحصيلي العلمي ، وحصولي على مركز مرموق، بقيت أعاني في داخلي من شيء لم أفقهْ كنهه ، وبسببه لم أكن سعيداً. ورحت أتساءل: **لماذا أنا بعدُ قانطٌ بائسٌ ومحبطٌ؟ لماذا؟**

وتذكّرت وأنا في هذه الحالة، بأن هناك رجلاً في مكان عملي اسمه ريتشارد، ترك هدوءه وصفاؤه الانطباع الجيد عليَّ. وحِرْتُ في أمره وقلت لنفسي: حبَّذا لو أستطيع أنا أيضاً الحصول على هدوئه وسلامه. ولما بدأت أتعرَّف إليه أكثر ، فهمت أنه مسيحي

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربيه ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

وأنه وجد السلام عن طريق إيمانه بالمسيح. لكن لمَّا عدتُ لنفسي، قلت لا، ليس الدين، إذ إن العودة إليه كانت تعني لي أنا بالذات العودة إلى الإسلام. وكنت متيقناً أنه لا فرق يُذكر بين الإسلام والمسيحية بحسب معرفتي السابقة. فقلت: لا، من غير المعقول أن أختار المسيحية كدينٍ لي. فماذا يفعل بي أصدقائي وأهلي؟ ومن المحتمل أن أُقتل وأصبح ضحية إذا فعلت. أحببت أن أحصل على سلام ريتشارد، لكن ليس عن نفس الطريق.

طلبت من صديقي ريتشارد أن يصحَبني يوماً إلى كنيسته، علَّني أكتشف مصدر هذا السلام وأجد ما يشفي غليلي من الداخل. فذهبنا معا. وهناك سررت جداً بالترانيم والصلوات، وكانت الموعظة مشجعة وبانية. ولمَّا عدت إلى بيتي أحسست بالسرور والرضى يعمَّان داخلي. وتكررتْ بعدها زياراتي لتلك الكنيسة مع ريتشارد. وازداد ربحي من السلام والفرح والتشجيع الذي طالما كنت أعاني من انعدامه في حياتي. ولقد جُذبت إلى كلمات يسوع المسيح بأنه من غير المتوجَّب علي أن أعمل عملاً صالحاً لكي أربح محبة الله لي. وأن محبة الله هي هبة ونعمة لكل مَن يقبل. فالله يحبني حتى لو كنت أنا أكره نفسي أو في حالة البعد عنه. بهرتْني تعاليمُ المسيح حين قال للفريسيين يوماً: **لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة.** كنت أشعر بأنني غير مستحق ، وشعرت أن يسوع المسيح قد علِم بجُرحي واستطاع أن يشعر معي شخصياً حتى غدا وكأنه يتكلم إليَّ أنا بكلماته تلك. وفي هذه الكنيسة بالذات تعرَّفت فيما بعد على شخصٍ أرمني دعاني بدوره لحضور اجتماعات لدراسة الكتاب المقدس باللغة العربية في كنيسة عربية. ولمَّا ذهبتُ شعرت للتوّ أنني بين أهلي . ولأول مرة في حياتي التقيتُ أناساً أغراباً عني إخوةً وأخواتٍ من بلدان عربية مختلفة في الشرق الأوسط متحمسين للقائي والترحيب بي. ومنذ ذلك الحين واظبتُ على حضور الاجتماعات هناك. ومرةً سألني الواعظ وقال لي: **هل تؤمن بيسوع المسيح مخلصا لك؟** قلت له: **إنني أريد أن أؤمن لكنني غير قادر؟** قال لي: عندما تعود إلى بيتك الليلة اركع بجانب سريرك وصلِّ واطلب من الله أن يسكن في قلبك. ولمَّا ذهبتُ فعلت تماماً كما نصحني الواعظ. **وإنني يا إخوتي لن أنسى تلك الليلة ما حييت . كأنني عدتُ للحياة من جديد.** ومن هناك بدأتُ حياتي مع المسيح. لم تصلْ حياتي فوراً إلى الكمال، لكن الشيء العجيب هو أنني كنت أتغير يوماً بعد يوم. ولما سألني الواعظ كيف أشعر الآن بعد أن صرتُ مسيحيا، قلت له: أشعر أن قلبي البارد بدأ يتحوّل إلى قلب دافىء. فأجابني : **إن الله في الكتاب المقدس يخبرنا بأنه ينزع عنا القلب الحجري ويعطينا قلبا من لحم.**

نعم منحني الله قلباً من لحم في خريف عام ١٩٨٧. وصرت أدرس الكتاب المقدس وأحضر الكنيسة دائماً. كما أخذت صفاً في الجامعة عن تاريخ العهد القديم. وحدث في ذلك الوقت أنني التقيتُ بفتاة مؤمنة في نفس الكنيسة العربية في فينكس أريزونا، واسمها لوئيس. فتعارفنا وتزوجنا في خريف عام ١٩٨٩.ولَكَمْ فكرت بأنه من المستحيل عليَّ أن أعود إلى لبنان بلدي بعد أن آمنت بالمسيح خوفاً من أن يقوم أحد بقتلي. ومات والدي في ربيع عام ١٩٩٥ولم أجرؤ على الذهاب لرؤية أهلي إذ أنني لم أكن

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

أعرف كيف ستكون ردة فعل والدتي على إيماني أنذاك. لكن رتب لي الرب أن أذهب في صيف عام ١٩٩٦، وذهبت غير عابىء بما سيحصل. ولما وصلت إلى بيروت ، أول ما قالته لي والدتي هو أنها أخفت إيماني بالمسيح والمسيحية عن باقي الأهل وأبقت الأمر سراً لأنَّها لم تكن تريد أنَّ أحداً يؤذيني. فارتحت لذلك. وعندما ودعتها في نهاية زيارتي قالت لي: **إنني أرى تغييراً كبيـــراً فيك يا ابني، ووجهك يدل على سلامٍ داخلي وإيمانٍ في القلب. إنني فخورة بك فلقد غدوتَ رجلا أفضل.**

(الاسم مستعار) **سمير من كاليفورنيا**

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service